التعقّل أو عقل الممارسة
عند الفارابي

عبد الله موسى

لقد تولدت تعددية المعقولية بأشكالها المختلفة حسب ميادين إنطباقيتها. بحيث إذا كان العقل هو المرجع في العقلانية [*] والمعقولية، فإن التعقل من حيث هو عقل الممارسة هو المرجع في التعقلية [**]التي هي صفة الإنسان في نمط سلوكه وعيشه وتفكيره.

لقد كان العقل عند الإغريق أداة تعارف قبل كل شيء، يتصل باللغة والتخاطب من حيث الإنسان حيوان عاقل . وأداة انفتاح على الآخر، ووسيلة للتخاطب والحوار والاتصال. فالعقل في صبغته الإغريقية تكوّن ضد مظاهر العنف فكان جسرا للتعامل والتساكن والتسامح. **لذا، لم تكن دعة "هبرماس" اليوم، إلى تأسيس معقولية جديدة على أنقاض العقل الأدواتي اعتباطية في جوهرها لأنها تعود بنا إلى أصل معنى العقل في صبغته الانفتاحية التي جعلت من اللوغوس جمهورية الفكر حسب " دولوز".**

فالعقل في العقلانية وفي المعقولية، هو المرجع الأول والأساسي إلا أنه في **الأولى** يكون حركة فلسفية وأطروحة مضادة للتجريبية، بينما يكون في **الثانية** مصدرا لعملية ذهنية منطقية معينة. أي التعبير عن توجه عملي وأخلاقي مفتوح للعقل ونعني به التعقلية. التي بها حاول" الفارابي " الخروج بالعقل إلى ميدان الأخلاق و الإتيقا. في مقابل العقل الأدواتي الصارم والمهيمن والذي لن يجد انفتاحه إلا في المسافة الأخلاقية والإيتيقية.

في حين أن التعقلية Raisonnabilité هو مفهوم جديد قديم يعبر عن توجه اتيقي للعقل قريب من مفهوم "الفرونيزيس" الأرسطي. ومفهوم **التعقل** عند الفارابي هو أداة تفكير عملي الغاية منه تدبير أمور المدينة وتنظيم شؤون الجمهور في الفضاء العمومي من أجل أن يحي الجميع في توافق مع الطبيعة.

في حين أن المعضلة الكبرى بالنسبة إلى الإنسانية لحظة عصر العولمة ليس اعتماد العقل وكثرة المعقوليات العلمية أو في ايجاد معقولية شاملة تضع حلولا نهائية لمعظم الإشكاليات العالقة والتحديات المطروحة، وإنما تحول ملكة التعقل لدى الإنسان إلى عقل حسابي وعداد آلي للوسائل السهلة من أجل تحقيق أكبر المنافع وهيمنة مبدأ المردود وكوجيتو البضاعة وتفضيل منطق النجاعة على نسق القيم والتشبث بالأوهام واليوطوبيا وإيثارها على اليقين والحقيقة..

ومثل هذا الحال يدعونا إلى النقد وذلك بالعودة للتفكير في رسم حدود للعقل ووضع ضوابط إتيقية والتشريع لعقل تواصلي يعتمد آليات الحوار والتفاوض والنقاش العمومي من أجل الوصول إلى درجة مقبولة من الإقناع والتوافق، وإلا بأي معنى تكون العقلانية النقدية التواصلية هي الأفق الإتيقي الذي سيتوجه نحوه الفكر البشري إذا ما حاول استئناف النظر في مسألة الوجود مستقبلا؟ .

وإذا كانت المعقولية قد عمقت أزمة العقلانية الأداتية وجلبت العدمية والنسبوية فهل تقدر التعقلية الاتيقية على انقاذهما معا من الفوضوية والانحسار والتراجع؟.

في هذا الصدد ، تعد نصوص الفارابي هنا بمثابة إعادة تأملية تحليلية لحالة الخروج بالعقل النظري (في تحديده الإغريقي) وربطه بالعقل العملي (التعاملي) على نحو تعقلي. **التعقل** الذي يعد عنده غاية داخلية تُضبط في المطابقة بين العقل والواقع، من خلال محاولته القضاء على انعزال الذات بإرساء علاقات بين الذوات تقوم على " الخير" كما يقول الفارابي في رسالة " التنبيه على سبيل السعادة ".

فالتعقلية في منهج الفارابي ، ما هي إلا مطابقة العقل على الواقع وما تحوّل الفارابي من البعد النظري إلى البعد الفعلي والعملي، إلا إرادة منه إلى فتح العقل على الوجود والحياة انفتاحا يتجاوز هيمنة المعرفة على الحياة ويسعى للتناغم وللسعادة لكي تصبح الحياة ممكنة.

لقد جمع في المعقول بين النظري المجرد والمنتزع عن كل مادة وجسم وبين الصنعة والتقنية والعمل والانتفاع الاجتماعي. حيث ورد مفهوم التعقل في بداية نصه "رسالة في العقل" ليفيد جودة الروية في استنباط ما ينبغي أن يؤثر من خير أو يتجنب من شر. بقوله: « .. أما العقل الذي يقول به الجمهور في الإنسان إنه عاقل فإن مرجع ما يعنون به هو إلى التعقل وذلك إنه ربما قالوا إنه كان عاقلا وربما امتنعوا أن يسموه عاقلا ويقولون العاقل يحتاج إلى دين والدين عندهم هو الذي يظنون هم إنه هو الفضيلة فهؤلاء إنما يعنون بالعاقل من كان فاضلا وجيد الروية في استنباط ما ينبغي أن يؤثر من خير أو يتجنب من شر ويمتنعون أن يوقعوا هذا الاسم على من كان جيد الروية في استنباط ما هو شر بل يسمونه نكرا وداهية وأشباه هذه السماء وجودة الروية في استنباط ما هو في الحقيقة خير ليفعل وفي استنباط ما هو شر ليتجنب هو تعقل..».[1]

أما في كتاب (**فصول منتزعة**) فقد ربط الفارابي التعقل بمفهوم الفرونيزيس phronosis الأرسطي[2]. مفهوم تبناه الفارابي شكلا من التفلسف الذي يؤسس علاقة " الإتيقا " بالسياسة على إمكانية استنباط "سعيد" لصورة الإنسان الذي هو فاضل ومواطن في الوقت نفسه.[3]

و**التعقل** كما تصوره "الفارابي وابن باجة "، إنما هو إمكان نظري نشيط وواعد لبناء إحداثيات **فلسفة عملية**، لا تقتصر على تحميل السياسة بالأخلاق الصورية كما فعل "كانط".(في مشروع السلام) بل تسعى إلى إيجاد اقتران فعلي بين الحقيقة / النجاعة بين المعقولية/ والتعقلية .[4] إلا أن مبحث الإنسان بوصفه الرافد الأول لمبحث الإتيقا ما يزال غير مؤسس بعد في نظامنا الفكري بما فيه الكفاية (بالرغم ما تحقق مع ابن باجة).

فالتعقلية بهذا المنظار، هي ما يجعل العقل تعقلا، أي بأخذ جملة المقاييس النظرية والعملية التي إن تحققت في ممارسات الإنسان تجعل من الفرد متعقلا. وبها يتحدد مضمون " **العقل الإشكالي**" ذو المنطلق التراثي والذي يعود بنا إلى معنى العقل الذي تناسيناه أو حكمنا عليه بالاستقالة خاصة عند الفارابي حين أرجعه إلى معناه الأرسطي في رسالته في العقل.

فالتعقلية إذن، هي من مشمولات الأخلاق و الإتيقا. (وكأننا بسبينوزا مثل الفارابي حينما

يعتبرها كامنة في العيش حسب مقتضيات العقل). فإن كان العلم والحكمة فضيلتي العقل النظري فإن التعقل هو فضيلة من فضائل العقل العملي. وفي آن هو « القدرة على جودة الروية واستنباط الأشياء التي هي أجود وأصلح ليحصل بها الإنسان خيرا عظيما في الحقيقة وغاية شريفة فاضلة. كانت تلك هي السعادة أو شيء مما له غناء عظيم في أن ينال به السعادة » .[5]

كذلك الأمر بالنسبة إلى التروي في الممارسات والأعمال لأن العاقل هو الذي يستطيع تدبير الأشياء عن طريق معرفة الأفضل في الطرق الموصلة إلى السعادة، وعليه، التعقل عند الفارابي أنواع كثيرة ، وذات بعد اجتماعي وإنساني فيكون:

- داخل الأسرة بما هى مبدأ للتدبير الجيد لكل الشأن العائلى وهو " التعقل المنزلي " .

- ويكون قاعدة التدبير داخل المدينة وهو التعقل المدني .

- ويكون إنسيا يسعى إلى سعادة الجنس البشرى وهو التعقل الإنسي.

فالتعقل يصبح إدراكا " للأشياء الإنسانية " والسعي بها إلى نيل السعادة. يفصح هذا الانشغال بالإنسية لدى مسكويه عن نفسه بشكل جلى إذ بالرغم من وقوعه تحت التأثير الأفلاطونى عامة وتحت التأثير الأرسطى " فى بعض تعريفاته وبعض توصيفاته الخاصة" يظل حسب "محمد اركون" الفيلسوف العربى الوحيد الذى استطاع إظهار أولوية فكرة العدالة داخل منظور أفلاطوني"[6] هكذا يسير على منوال " أرسطو " في كتاب الإتيقا الذي يميز بين الفرونيزيس والفنون والحكمة، لأن "الفرونيزيس" يتطلب الروية واستعمال الرأي ولا يمكننا التروي في الأشياء التي تتميز بضرورتها.

وهذه الأنواع الثلاثة من التعقل (المنزلي، المدني، الإنسي) تمثل كلها مستويات ثلاث لاجتماعية الوعى الإتيقى، وتخضع إلى سلم تفاضلي حسب ما تتطلبه الغاية التطبيقية من درجات في التعقل على اعتبار الإنسان في ممارساته المتعددة سواء في المستوى العائلي أو المدني أو الإنسي لا يستعمل ولا يحتاج إلى نفس التعقل ولا إلى نفس المقدار من التعقل. فإن كان الأمر كثيرا أو عظيما احتاج إلى تعقل أقوى وأتم وإن كان قليلا أو يسيرا اكتفى باليسير من التعقل. [7]

كما يعمد إلى تقسيم التعقل الإنسي على وجهين:

. **وجه مَشوري**: يكون التعقل متوجها إلى الآخر في قالب استشاري ليشير به على غيره إما في تدبير منزل أو مدينة.

. **وجه خصومي**: وهو التعقل الاستراتيجي الذي به نستطيع صد عدوان أو تنظيم حرب أو " استنباط رأي فاضل " في المقاومة وضمان سلامة المنزل والمدينة والإنسان.

إن مفهوم " **التعقل** " يتعلق بالممكن وبالمستقبل بما يسميه الفارابي في تحصيل السعادة با"لأشياء الواردة " سواء كانت طبيعية أو إرادية في زمان ومكان محدّدين. فهو **ليس** بصناعة لكي يقصر همه على النجاعة،[8] و **ليس** بالحكمة لأن الحكمة كما بيّن "أرسطو" لا تهتم بسعادة البشر لأن دورها ليس الإنتاج.أما التعقل فله ذلك الإمكان . بهذا المعنى تغدو الإتيقا ممكنة لأن المدينة غير ممكنة إنسانيا بدون إيطيقا. في ذلك يقول الفارابي: « بعد أرسطو لا يمكن أن تكون

حاكما دون أن تكون متعقلا، ولا يمكن أن تكون متعقلا دون أن تكون فاضلا.» [9]

وبالتالي ، نخلص إلى أن فلسفة الفارابي فلسفة تعقلية، شعارها التدبير بمختلف أنواعه مثلما أشار إليه في أغلب النصوص المتأخرة، ومن ثم كذلك التوحيد والتأليف والتنسيق، تجمع بين آراء أرسطو وآراء أفلاطون، وتسلك طريق الأفلاطونية الحديثة في توضيح صدور الموجودات عن السبب الأول على جهة الفيض"" فمذهبه إذن ليس مشَائيا ولا رواقيا، ولا أفلاطونيا حديثا فقط، وإنما كل هذا في وقت واحد""[10] على حد تعبير ج.صليبا. ولم يخرج عن إيمانه بوحدة الفلسفة، ووحدة الحقيقة والمعرفة.

و انتقال المفهوم الى المنهج أو العكس يكمن في تحول **التعقلية** إلى غاية داخلية تضبط في المزاولة والمطابقة لا محالة ولكنها من خلال اجتماعيتها وأخلاقيتها تحاول القضاء على انعزال الذات بإرساء علاقات بين الذوات قائمة على علة " الخير " حسب تعبير الفارابي وعلى التسامح . كما يذهب إلى ذلك " فتحي تريكي " في كتابه " العقل والحرية ". [11]

إذ نتفق مع أ. فتحي التريكي حين يعالج مشكلة الحرية والتحرر ضمن مجال التَّعقل المستنير وليس التوهم المتكوثر في فضاءات التثوير الاعتباطي، فالحرية والتحرر هي ثقافة ومشروع أمة تريد أن تكون معركتها التاريخية مع كل أشكال التبعية غير المشروعة: إذ يقول : « .. إن قضية التعقل والحرية هي أساس كل القضايا المطروحة لأنها ستنير السّبيل لكل من يعمل على تحريك الواقع العربي الحالي، وذلك إذا تحرر الإنسان العربي من معاناة الآثار النفسية والاجتماعية التي تشده إلى طرح القضية طرحاً مغلوطاً فيستمر عدم الانتباه إلى أساس فكرة الحرية في جوهرها ويتوجه بالدرس والتنقيب نحو الكيفيات والأنواع والنتائج فقط »[12].

لذلك في كتابه " العيش سويا " Le vivre ensemble يشير إلى أن تقدير "التروي" فى نصوص الفارابي عولج على صورة روية من جهة القواعد الاجتماعية. هذه اللحظة الفارابية يقول : يمكن تقديمها على أنها تفكير كل الشأن الإنساني الذى يعود رأسا إلى التقليد الفلسفي اليونانى حيث اقتبست الأفكار القوية المتعلقة بالعيش سويا مع أرسطو خاصة، وقد تدعمت بتداخل فضائين فكريين: الفضاء الأسطورى والدينى والفضاء الإبستيمى والفلسفي ليضعا جليا تطورا أخلاقيا وفلسفيا قادرا على التفكير فى السعادة الإنسانية. ومثل هذه السعادة لدى الفارابى بلوغ الإنسان تماميته من جهة كون النفس "تصل إلى ذروة كمال الوجود وتصبح قادرة على الحياة بدون احتياج إلى مادة فتتجوهر وتثبت إلى الأبد على تلك الحالة[13]

ذلك ما يجعل التعقلية تختلف عن المعقولية ، لأن المعقولية غاية تتضمن المعالجة التكنولوجية الأدواتية حسب تعبير هبرماس، في حين تتجنب التعقلية مستتبعات العقل الأدواتي لأنها غير مجبرة على استبطان صيرورة العقل.

إذا كان عصر الأنوار الذى أعطى دورا أساسيا لاستعمال العقل فى الممارسات الإنسانية وجعل الحرية مثلا للعيش سويا. فالفضاء الجديد الذى افتتحته العقلانية النقدية والذى يجد امتدادات اليوم لدى فلاسفة أمثال "رولس وهبرماس وشارل تيلور وجاك دريدا وبول ريكور" تجسده الغيرية بما هي قاعدة تغذى كل فعل إنساني وتطور

مشاعر الحب الإنساني التي تقف في وجه كل أنواع البربريات التي تهز العالم..

فهناك مشكلات جديدة تتعلق بفهم الوجود الأخلاقي اليوم، وبالإمكانيات التي توسع حقل الإتيقا الحديثة من أجل مناشدة الفلسفة نفسها في آخر الأمر. لأن القضية لا تتعلق بإعلان قوانين أخلاقية أو قواعد للحياة الاجتماعية ..بل تتعلق بوجوب التفكير فى تعميم التعقل الإنسي. التعقل المدرك " للأشياء الإنسانية " ..

ومهما يكن، فإن التعقلية لا تعوض المعقولية كما لا تعوض العقل، بل مهمتها تأنيس العقل وفتح المعقولية على الأخلاق و الإتيقا حتى ترتبط الحقيقة بالجدوى فينتج عن ذلك عمل إنساني في جوهره ويكون العقل مرتبطا بالتسامح والحوار والسلم، فالتعقلية هي فتح العقل على الإنسان من حيث هو إنسان في مجالاته المختلفة والمعقدة.

أ.د. عبد الله موسى مخبر تطوير للبحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية

جامعة د.الطاهر مولاي سعيدة

***هوامش :**

(*) تفيد العقلانية مذهبا جداليا يقر العقل ويفند ما سواه .

(**)التعقلية مفهوم جديد متأصل في الفكر العربي والفلسفة العربية الإسلامية وموسع في الفكر المعاصر . وتتضمن التعقلية العنصر النظري والعنصر التقني والعنصر العملي ، وبأبعادها الثلاثة المذكورة قد تتواصل مع مفهوم المعقولية كما حدده "هبرماس " الذي أراد أن يعطي للعقل صبغة اجتماعية . إلا أن التعقلية تتجاوز المعقولية ببعدها الأخلاقي الذي يكبح لجام التقنية في محاولتها السيطرة على الإنسان (البيوتقنية مثلا) والذي يفتح العقل والعلم على الإنسان ومشاكله الخاصة والعامة .

(***) اللوغوس تعني كلمة (عقل) باليونانية ، و كانت تعني هذه الكلمة ذلك الخطاب المتلاحم أو المقبول و المستند إلى برهان و المفتوح على معطيات الإحساس و الخيال .فمثلاً إذا كان للإنسان هدف عقلاني فهو إذن حيوان ناطق و متكلم ، و من المسلم به أن الإنسان لا يتكلم دائماً بتعقل لكن يسعى دائماً كي يكون كلامه مسموعاً و معروفاً . و هذا المعنى كان يعكس الميل الطبيعي للعقل البشري كميل تلقائي بلا نقد و لا تأمل لكل ما يعتقد أنه الحق ، فهو لا يحاول أن يواجه إمكان_ _ التشكيك في هذا الفرض التلقائي . الشيء الذي طبع مفكري الإغريق الطبيعيين الأولين في القرن السادس قبل "المسيح" ، إذ هؤلاء الفلاسفة الأقدمين لم يكونوا يقصدون من المعرفة العقلية ذلك الإشعاع الفكري المحض، و إنما هي عندهم عمل العقل في مدركات الحواس فلذا استخدم "اللوغوس" بمعنى القول أو العقل في الفلسفة القديمة كقانون كلي و أساسي للعالم

1- رسالة في العقل تحقيق وتقديم الأب موريس بوبيج اليسوعي . بيروت 1938.ص 4 و 5 .

2 – يترجم الفارابي مفهوم الفرونيزيس الأرسطي بمفهوم التعقل .. الذي يحتوي من حيث الاشتقاق والدلالة .. معنى المشاركة والتروي والتفكير والحذر ، فالمشاركة ضرورة العمل اليومي في المجتمع ، لأن التعقل تواصل بين الناس وملكة سيكولوجية واجتماعية في الآن نفسه.

3- الفارابي فصول منتزعة . تحقيق فوزي متري نجار . المطبعة الكاثوليكية . بيروت 1971. فقرات 14،15، ص 34.35.61.و70و71).

4- فتحي تريكي ، العقل والحرية . تبر الزمان 1998 . تونس . ص.47.

5- فتحي المسكيني ، دراسات حول الفارابي . مبحث الايتيقا في فلسفة الفارابي .ص 82.

6- فتحي المسكيني نفسه . ص 83.

7- الفارابي ، فصول منتزعة .ص 42 .

8- ibid., Aristote.ch 5 et 6.de L'éthique.

9- الفارابي ، رسالة في العقل والفصول ، المصدرين السابقين .فقرات 39.ص55و42 ص57.

10- .جميل صليبا. تاريخ الفلسفة العربية. ص 183.

11- أنظر ، فتحي تريكي ،. ص 43.

. نفسه، ص 45 العيش سويا .ص 45.